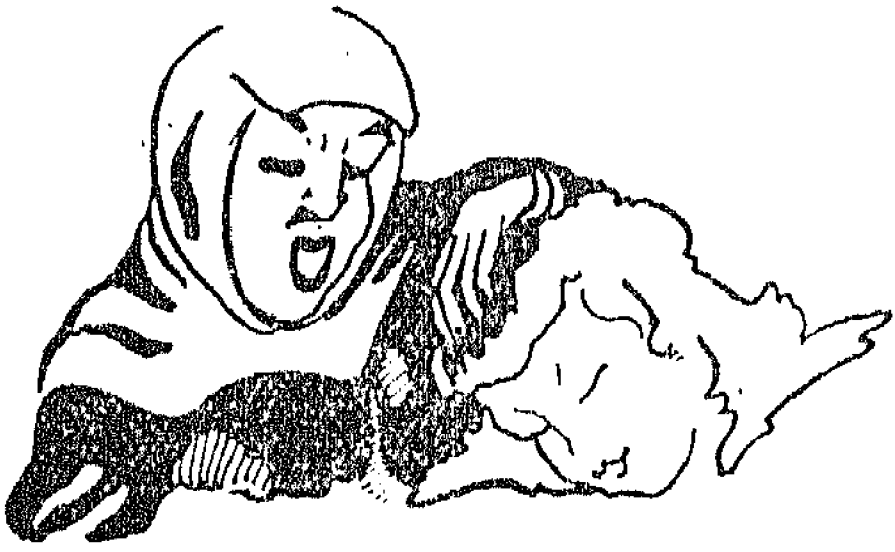




وبدأت المعجوز قستهما بصوتها الناعم
الرفيق ، فبدأ الجمع الذي كان يطن كأنة
خلية النحل . وبدأ الصبية وقد أسندوا
ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

حديث جدة ..

يوم الخميس من أحب الأيام إلى نفسه . . فقد
كان هو اليوم الذي يشعر فيه أنه حر طليق يرتع
كما يشاء . . بل وكان يتمنى في قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع
كاه أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيداً إلى مكتبه طول أيام
الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزي
كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد !

وكان يوم الخميس ممتعاً حتى في حصصه . . فقد كانت
الحصتان الأولتان « إنشاء » والثانيتان « رسم » ، ولم يكن
هناك أحب إلى نفسه من الإنشاء العربي والرسم . . فقد كان
بارعاً في كليهما ، وكان مدرسا العربي والرسم حبيبين إلى
نفسه ، إذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان
ثانيهما سميناً أبيض اللون خفيف الدم . . فكان الصبي يجد
في درسيهما متعة وسروراً .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذناً بانتهاء الحصّة الرابعة ،
حتى يسرع الصبي إلى بيته ، فيقذف بكتبه . . ثم ينطلق إلى
بيت « جده » .

وكان بيت « الجد » هذا هو أحب أماكن النزهة إلى
نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبي ، وكان أهم ما يمتاز به

بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! .. الحرية المطلقة
التي لا يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبي يحد نفسه مطلق الصراح .. يلعب كما يشاء ..
ويأكل ما يشاء ، ووقتها شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل
حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات
(أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن من المستطاع
توسيخها أكثر مما كانت) .. وكان يستطيع « الشقلبة » كما شاء
دون أن يتهمة أحد « بالشقاوة » و « العفرتة » .. كان يشعر
أن بيت جده ملىء بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية
الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون
كل خميس في بيت الجد أو « البيت الكبير » .. والواقع أن
الصبية كانوا يحدون من روح الفوضى التي تسود البيت
مرتعا خصباً لمرحهم ولهوهم .

وأخيراً .. وهو أعم ما في الأمر .. كان الصبي يحد في
البيت جدته العجوز التي كانت تخصه بالعطف دون سائر
الأولاد ، والتي كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة في فن القصص .. براعتها في كل
شؤون الحياة عند ما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل
أن يصيبها ذلك الشلل الذي تركها راقدة طريحة الفراش ..

لا تستطيع النهوض . . ولا تقدر أن تقف على ساقها .
كانت الجدة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزاً ككل العجائز
فقد كان كل ما فيها محبباً إلى النفس مقرباً إلى القلب ، كانت
متحدثة بلا ثثرة . . طيبة القلب بلا حمق ولا بله . . سديدة
الرأى بلا مكر ولا دهاء . . معتددة بنفسها بلا غرور
ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة في رأس الصبي . . بجسدها
الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئاً
ساكناً ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد أخفى
بمندبل أبيض ، ويداهما النحيلتان المعرورتان ، قد امتدتا
فوق الغطاء .

وكان صوتها يعاو هادئاً ناعماً . . وقد التف حولها
الصبية بلحون عليها أن « تحكى حدودته » . . وتبدأ قصتها
فاذا بالسكون يسودهم وكأن على رؤوسهم الطير . . .
ويشرئبون بأعناقهم إليها ويثبتون أبصارهم في وجهها وهي
تقص قصتها ، ويستمرون هكذا في سكوتهم ساعات طوالاً
وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنة حتى تنتهى
القصة فيتمطون ويتشاءمون ويذهبون للعشاء والنوم
ورؤوسهم ملائ بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة . . خضراء العينين
دهمية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الأطوار شاذة الخلق .
إذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج
سريعة التأثر ، وكانت من فرط إحساسها يخيل إلى الناس
أنها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية
لطفلة في مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم إنساناً كان أو حيواناً
وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطعة
أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحداً يقتل
أمامها حشرة مهما كانت ضالتها وحقارتها ، وكان أكثر
ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفي ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة إلى قلب الصبي ،
انطلق كهاده إلى بيت جده . . فوجد الجميع في انتظاره ،
وبدأوا في لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلال ونال منهم
التعب . . فذسللوا إلى الدار الفسيحة قبيل الغسق واتهموا
بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى في حجرة
الجدة التي استقبلتهم فرحة باسمه ، والتفوا حول فراشها
يطلبون منها كهادتهم أن تقص عليهم إحدى قصصها .
ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ،

تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم
إلى الجلوس حول فراش العجوز ، وأشدّهم إنصاتاً
وأكثرهم لطفة وتشوقاً .

وبدأت العجوز قصتها في صوتها الناعم الرقيق فبدأ
الجمع الذي كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد
أسندوا ذقونهم إلى أكفهم الصغيرة .
قالت العجوز :

— في غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان . . كان
يحكم الدنيا ملكان من ملوك الإنس أحدهما ملك
المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان
يتنازعان السلطان ، ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها
أوار أو تنطفئ لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراع
والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة
لتوطيد أركان السلام ، وإبعاد شبح الحرب أن يزوج ابنة
من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن
وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية
وتتصافي النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة . . لا تعصف
بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفرع .
وكان ملك المشرق قد ملّ طول القتال وشعر بالحاجة

إلى أن يقضى البقية الباقية من العمر في هدوء وسلام . . .
فاستصوب رأى الحكيم . . . ورحب به ، وسرعان ما أرسل
الرسل إلى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة
الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم في الوثام
والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم في عنف وصددهم في غير لين
ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراءه واحتقاره ،
وطردهم شر طردة ، وعاد الرسل يجرون أذيال الخيبة
والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب في نفوسهم
فأفضوا إلى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن
في إهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها إلا الدماء
وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه . . . وأقسم أن
يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه
إرباً إرباً ، وأن يعذبه عذاباً لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير إلى خصمه جيشاً لم يسمع
الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذي
كان يملأ الحقد قلبه ، إذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له
دون سواه ، وكان يتحرق شوقاً للثأر لكرامته المهذورة ،

والانتقام من احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لا تبق ولا تذر ،
وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . . فقد كان
يعلم أنه لن يسكت على مالحقه من إهانة ، ولسكنه لم يتوقع
أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا في مثل هذه
القوة . . .

وهم الجيش الغازي ، فصب على رؤوسهم الحم فمزق
شملهم وفرقهم أيدي سبا . . وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة
في يدي الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها
ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من
تذليل وتعذيب . . فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .
ورأى الأمير أن الأميرة تستحق ماسفك لأجلها من
دماء ، وما بذل في سبيلها من أرواح . . فقد كانت رائعة
الحسن فاتنة ساحرة . . حتى أحس الأمير أن الأسيرة على
وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت
على نفسه فأضحت في قلبه ناهية آمرة !!

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول أن يستميل
الأميرة إليه ، ولكن قلبها كان مليئاً بكرهه ، وحاول

استرضاءها برفعها من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها .
ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد
كان محروماً من حب الفتاة التي جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد
قواه ويعد العدة للتأثر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه
استعداده ووجه جيشاً هائلاً للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ في تحصين
مدينته . فلم يكدر يصل الجيش المهاجم حتى كانت المدينة
أمنع من العقاب .

واضطار المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن
يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت في مقاومتها
الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئاً . وكانت الأميرة تتلطف
على نجاح أبيها في هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير
وقومه كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب في قلبها
عندما رأت أباهاً يفشل في اقتحام المدينة ، وصممت على
أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد
أباهاً في هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له

وأحس أن بغضها قد أضى حياً ، فتملكه السرور وملأت
السعادة قلبه . . واستدرجته الأميرة . . فوثق بها ولم يتوان
عن أن يفضى إليها بكل ما عنده .

وفي جنح الظلام تسلمت الأميرة من القصر ، وهربت
في زى أحد الجنود وذهبت إلى معسكر أبيها فباحث له
بأسرار الأمير ، ولم يمض يومان على اختفائها من القصر
حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدتها العدو حصداً .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلاً كما اقتاد الأميرة من قبل ،
وسجنوه في قبو مظلم رطب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير في كل ما حدث له إلا خيانة
الأميرة . . فقد كان حبها مازال عالقاً في فؤاده ، وكان
يمزق قلبه أن ما أظهرته له من حب لم يكن إلا لخديعته
والإيقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير . .
فأثت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلباً . . فقد انتفض
قومها على أعدائهم فلم يتركوهم إلا عظاماً نخرة وحطاماً بالية ،
وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

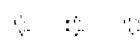
وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير . .
وشعرت أنه لم يرتكب ما ارتكب إلا من أجلها ، وأنه

كان كريماً معها ، وبدأ حبه يتسلل إلى قلبها يوماً بعد يوم .
حتى شعرت أخيراً أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .
وتنكرت الأميرة في زى خادمة وحملت معها إناء به
خمر وتسلمات إليه تبغى زيارته في قبوره وأخبرت الحارس
أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطي الإناء للأمير السجين .
وذهل الأمير حين وجدها أمامه ، ولكنها أسرت إليه
بندمها واعترفت له بحبها . . فكاد يجن من الفرح ، وأحس
أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيناً في القبو من أن
يعيش بدونها طليقاً في قصره ويملكته ، وشغلها الهوى
برهة . . ثم أفاقا على صوت أقدام الحارس تقترب . .
فانهمكت في ملء الكأس للأمير . . وأعطتها له فجرعها
في لهفة ، وخیل للأمير أن طعم الشراب كان غريباً ، وتوهم
حرارة في جوفه . . فظن بالشراب سماً ، وبدأ الوهم يتملكه
نخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ،
وزاد الوهم في نفسه فجئ جنونه ، ورأت الأميرة عيناه
تبحظ وأسنانه تصر ثم قفز فجأة وأمسك بعنقها في قبضة يده
وصاح بها :

— لم تصرين على تعذيبى وقتلى . . أنا الذى أحبتك
حباً لم يحبه إنسان من قبل . . أنا لا أخشى الموت ، ولكنى

يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ،
ولكنى لا أرغب فى الذهاب إلى الحياة الأخرى بدونك !
وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه
حقيقة وأنها لاتخذه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى
أعطته إياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير طعنها بسيفه
طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده
فتتركه للاحراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد
مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم
أحشاؤه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .
ومر الوقت بطيئاً ، والأمير يحس أنه مازال حياً ،
وأخيراً بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة
لم تخذه ولم تدس له السم ، وأنه قتلها ظمأ وعدواناً .
ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على
الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .



ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز . . فأفاق
الصيدى من ذهو لهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته
فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم ، وانقلب السكون ضجيجاً
وصخباً واندفعوا يتسابقون إلى الطعام كأنهم لم يذوقوا
للأكل مذ خلقوا طعماً .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة
حولها ، فإذا بالصبية النحيلة مازالت قابضة في مكانها لم تغادر
الحجرة مع الجمع الصاحب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات . . تأهية
الفكر ، وقد ملأ الحزن قسبات وجهها . . وسألتها الجدة
في رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها في صوت
خافت يقطع البكاء :

— لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلاً لعلم أنها
لم تسعه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .
وضحكك الجدة وربت على ظهر الفتاة . . ثم قبلتها في
حنان وأجابتها :

— يا حبيبتي إنها قصة . . فليس هناك أمير ولا أميرة .
ولسكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت في وجومها
وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين . . واستمر
الأسى يملأ قلبها .

وذهب الصبي في الخيس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ،

وسأل عنها فأنباوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن
الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها
سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس ..
فقد كانت هي الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبي أن يمنع نفسه من الضحك ، عند ما
أخبره أحد الصبية هامساً أن ابنة العم مريضة من قرط
حزنها على الأمير والأميرة التي سمعت قصتهما من الجدة في
الأسبوع الماضي .

وقبيل الغسق رأى الصبي عمه (والد الصبية المريضة) ،
قد حضر إلى الدار متجههم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده
يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكي بكاء خافتاً .
وذهل الصبي عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى في حياته
قد خرجت من حجرتها وهي تزحف على الأرض ، وقد
أصرت على الخروج .. ثم رأهم يحملونها على مقعد وينزلون
بها السلم حيث يضعونها في عربة حملتها إلى بيت العم ، حيث
الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ،
وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكي في هذيانها على
ما أصابها .

وفي بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها إلى
حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبي دهشاً من كل ما حدث . . لا يكاد يدرى
سبباً لا تنقل جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء
ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر بجدته قد تمددت في فراش
الصبية ، وقد ضمتها إلى صدرها بإحدى يديها .

وسمع صوت الصبية يهـذى بكلمات متقطعة ، ثم سمع
صوت الجدة تدللها بكلمات ملؤها الرقة والحنان . وتقول
« يا حبيبتي .. ألا تدرين ما حدث للأميرة والأمير ؟ »

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :
— لقد أفاق الأمير ، فعلم أن السيف لم يقتله بل أصابه
بجرح خطير كاد يودي بحياته لولا أن استطاع الحارس
نجدته وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته . . وساء
الأمير أن وجد نفسه حياً ، فقد كان لا يرغب في الحياة دون
أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضاً لم تمت ، إذ لم
يكن جرحها قاتلاً واستطاعوا إنقاذها .. فثلا الفرح قلبه ..
ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها . . وخشى أكثر من
ذلك أن تكون قد عادت إلى بغضه وكراهيته بعد ما فعله
بها . . وعصفت به الهواجس فعاد إلى إغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب إلى قلبه . .
فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة
المحجوبة بدمها ولحمها . . وأبلغته الأميرة أن أباهما قد عفا عنه
وأطلق سراحه ، وأنه حر في أن يعود إلى مملكته ، ولكن
الأمير لم يبد عليه الفرح ، وأخبرها أنه لا يريد حرته ولا
مملكته ، ولكنه يريد ما هي . . فأخبرته أنها هي أيضاً ملك
يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة « وعاشوا في الثبات والنبات ،
ونخلفوا صبيان وبنات » .

وظهر الهدوء على الصبية المريضة وكفّت عن الهذيان
واستمرت الجدة تدللها حتى راحت في سبات عميق .
وعند ما عاد الصبي في الخنيس التالي ، وجد الصبية في
وسيط الجمع ، وهي تضحك في غبطة ومرح . . وكان أول
ما قالت له :

— ألا تدري ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبي وقال :

— نعم أعرف . . لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبي ، وسألته من
أخبرك ؟

وضحك الصبي مرة أخرى وأجاب :
- أخبرني الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبي أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة
إلا وقد تزوج البطلان في النهاية .

